المارد الصغير

عبدالعزيز بن مبروك الصحفي

كانا يتجاذبان أطراف الحديث، وفجأة قال له محدثه "ما رأيك فِي"، فرد عليه "أنت" وسكت، وكانت من أصعب المواقف، عندما يخونك التعبير، تفقد الشعور بالألم وربما تفقد الحاجة إلى الشعور بأي شيء، فقط تظل تدور في داخلك وخارجك تبحث عن جملة أو حتى كلمة تعبر فيها بصدق عما يجول بخاطرك في تلك اللحظة الحاسمة من حياتك، وربما تحاول فقط أن تجد كلمة واحدة تبدأ بها الحديث، ولكن هيهات تظل عيناك زائغتان ورأسك الصغير تدور فيه آلاف من الهرمونات الشعورية وقد تمتد إلى بقية أعضاء جسدك، وإذنانك تصيخان السمع لعلها تسمع شيئًا، وإنما يأتيك الصوت من داخلك فتسمع ملايين الفرقعات التي أحدثتها الموصلات العصبية وهي تتقافز بين الخلايا العصبية وكأنك تراها أمام عينيك وهي تحاول جاهدة إيصال المعلومات داخل الخلايا بتناسق عجيب لتصل إلى معلومة قديمة أو حديثة تكون مخزنة في أحد جوانب الدماغ لتسعفك بكلمة، ولكن دون جدوى..

أخيرًا تعرف يقينًا أن الكلمات أحيانًا قد تضيع وقد تنسى كل المفردات التي تعلمتها في حياتك في مواجهة موقف واحد تريد أن تقول فى رأيك بصراحة ولكنك لا تستطيع، ربما لأن كلمة صراحة نفسها لم تعد تعرف لها المعنى الحقيقي فهي فقط كلمة يُعبر الناس بها عن الشفافية والوضوح التي ليس لها من حروفها إلا إسمها وأما المعنى الحقيقي لها فقد تلاشى في خضم الكم الهائل من الكلمات المنمقة التي غيرت معناها وجعلتها تعني شيئًا آخرًا بعيدًا كل البعد عن معناها الحقيقي، ولكي تخرج من هذا الموقف العصيب تطلب من محدثك أن يمهلك لحظة فتغادر الموقع إلى حيث تختلي بنفسك، ترشف رشفة حفيفة من فنجان قهوتك التي زاد فيها الحليب عن القهوة حتى لا تنبهك أكثر مما أنت متنبه أو لنقل حتى لا تخرجك من حالة اللاوعي التي تركتها كلمات محدثك فيك.

وبعد الرشفة الأولى والثانية من فنجان قهوتك، عدت إلى نفسك، رأيتها من الداخل والخارج وجدت نفسك أنك مثل بقية البشر وخاصة في الزمن الذي تعيش فيه، إن قلت ما يجول في خاطرك بكل صدق قد تفقد أعز الأصدقاء وربما بعض من الأقرباء وإن لم تقلها يظل ضميرك يتألم وقد يمرض فيموت موتًا بطيئًا فتركب مع الجميع في نفس السفينة، تلك السفينة التي حوت داخلها أصنافًا من البشر جلهم يبحث عن شيء واحد قد يجده وربما يقضي ما بقي من عمره يبحث عنه، لذلك لا يرى غضاضة في بعض ما يقوم به، إنما المهم هو بلوغ الهدف الذي يخاف أن يخطفه منه الآخرين.

أنهى قهوته وضغط بكل ثقة وعزيمة على إزرار أطفاء ذلك المارد الذي غير مجرى حياته وحياة الكثيرين من الناس، وقرر أن يأخذ إجازة طويلة من هذا الذي يحمله كل وقت في جيبه وينام بجانبه وأول ما يفتح عينه يتلمس مكانه ليرى هل من جديد، هذا الذي جعله يرى كل الناس ملائكة، وكل الناس شياطين، وكل الناس مصلحين، وكل الناس مجرمين فيعيش حالة غير متوازنة من الخوف والأمل والرغبة والإمتناع فيحلم بأنه سيقابلهم في الحياة العامة كما يراهم في هذا المارد الصغير الكبير ، ولكن عندما يدخل في معترك الحياة يجد إختلافًا كبيرًا عما يراه في شاشة ذلك الصغير، ربما تستمر الإجازة ولكن بالتأكيد متطلبات الحياة ستعيده إليه رغمًا عنه.

عبدالعزيز بن مبروك الصحفي